بطـل بولنـدى

من أبطال الحرية والاستقلال

(صفحات من حيـاة الزعيم كوستيوشكو)

الأمة البولندية من الأمم التى امتحنتها الأيام ، وصهرتها الخطوب . ومصير هذه الأمة الصبور المجاهدة منذ ذلك الحادث الفظيع المعروف فى تاريخ أوربا الحديث باسم تقسيم بولندة الأول طالما أثار العطف عليها ، والمرثية لما أصابها . وقد ثبتت بولندة لنوازل الخطوب ، ولم تستطع القضاء على حيويتها الحروب المبيدة والثورات الدامية ، وقد احتملت عسف الروسيين وعنجهيتهم وسوء نيتهم ، وغشم البروسيين وغلظتهم وجشعهم ، وتخلت عنها أوربا فى أشد أيام محنتها ، ولم تتقدم أية أمة من الأمم للأخذ بيدها فى أكثر مراحل جهادها الشاق الطويل فى سبيل الاستقلال والحرية .

وعلقت بولندة أملها فى الخلاص على الجبار الكورسيكى نابليون ، وأخلصت له الولاء ، وشدت أزره فلم يف لها ، وضحى بها فى سبيل

مطامعه ، وقد ثار البولنديون بظالميهم ثورات عدة كانت تخمد بقسوة رهيبة و بعد مجهود عنيف ، منها ثورة سنة ١٨٣٠ وثورة سنة ١٨٦٣ ، ولست أنكر أن للبولنديين — كما لسائر الأمم — عيوبهم الخاصة التى جرت عليهم الأهوال واستوجبت صارم العقاب ، ولكن ما حل بهم من فوادح الملمات لا يعادل أخطاءهم ، ولا يوازن نقائصهم ، فقد لقى هذا الشعب الباسل من حماقات الروس وفظاعات الألمان الشىء الكثير ، وكل أمة لها ماض مأثور فى الجهاد لنيل الحرية لا بد أن تزدان صفحات تاريخها بسير الكثيرين من أبطال الوطنية وقادة الحركات الثورية ، وتاريخ بولندة من هذه الناحية مفعم بجلائل الأعمال ونبيل المواقف وحوادث البطولة ، وفيه نلتقى بطائفة من أصحاب النفوس الكبيرة الأبية المطبوعة على البذل والفداء والاستشهاد .

مطامع الروس فى بولنده :

وقد أخذ الضعف يدب فى بولندة منذ عهد ملكها الشجاع جون سوبيسكى الذى أجلى الأتراك عن أسوار فينا ، ورد غائلتهم عن النمسا فى سنة ١٦٨٣ ، وكان سوبيسكى جنديا بارعا و بطلا مقداماً ، ولكنه لم يكن ملكا عظيما ولا سياسياً قصى النظر ، فلم يستطع استئصال عوامل الضعف والفساد و بواعث الفوضى وتشعب الآراء ، وجلس على عرش بولندة بعده ملكان من أصل ألمانى كانا لا يعبآن بشؤون الدولة ولا ينهضان بأعبائها

مما ضاعف العلة ، وزاد فى الارتباك ، فأخذت الجيوش الأجنبية تكتسح بولندة وتغزوها وتتدخل فى نظام حكومتها وتوجيه سياستها ، وتعيث فى أرضها فساداً . وكان نبلاؤها فى شقاق دائم ، وكانت فى حاجة إلى يد حازمة تتركز فيها القوة وتكبح جماح عوادى الأهواء ، وكان جيران بولندة الثلاثة وهم الروسيا والنمسا وبروسيا يعملون على تعكير جوها وإقلاق راحتها ، ويأتمرون بها ، ويبيتون لها الشر ، وأخذ المفكرون من أبنائها المخلصين يلمحون الهلاك المحقق المقبل ، ويرون نذر الشر والسوء .

وفى سنة ١٧٦٤ تسنم عرش بولندة بمساعدة القيصرة كاترين الثانية نبيل بولندى اسمه « إستانسلاوس بونياتوسكى » . وكان هذا الرجل أحد عشاقها الكثيرين . وكانت القيصرة كاترين ملكة بعيدة المطامع ، شديدة الدهاء ، واسعة الحيلة ، وقد سولت لها مطامعها الاستيلاء على بولندة برمتها ، فأخذت تتحين الفرص لبلوغ غرضها . وقد أعانت إستانسلاوس على اعتلاء العرش لأنها كانت تعرف لين عريكته وسهولة انقياده . وكان إستانسلاوس ولوعا بالفن ، مقبلا على الأدب ، دمث الأخلاق ، ملماً بآداب المجتمع ، فشيد قصراً على الطراز الفرنسى فى وارسو تحف به الحدائق الغلب ، وأقام به مسرحاً فى الهواء الطلق تترقرق إلى جانبه بحيرة ، وأنشأ مدرسة حربية لأبناء الأشراف عنى بها وأشرف عليها بنفسه ، وكان من الذين تربوا بها وتخرجوا منها البطل البولندى كوستسيوشكو ، ولكن ملك بولندة فى تلك الفترة الدقيقة من حياتها وهى فى مهاب المطامع ومعترك

الشهوات كان فى حاجة إلى صفات أخلاقية أسمى من الشمائل الرقيقة ، والذوق المهذب المصقول . كان فى حاجة إلى الإيمان القوى ، والإرادة الماضية ، والعزم الصلب . وكان إستانسلاوس فى يد امرأة من طراز كاترين مثل الشمعة طواعية ولينا .

واستغلت كاترين الفرصة ، وأرسلت مندوباً من قبلها اسمه ربنين (Repnin) وكان رجلا مزهواً قاسياً تسنده قوة روسيا . وكان البولنديون يعجزون عن مقاومته حتى أصبح الحاكم الحقيقى لبولندة . وقد حاول هذا الرجل إرغام مجلس النواب البولندى على إقرار وثيقة تمتهن حرية الشعب وتنزل به إلى مرتبة الرق والعبودية ، واعتقل النواب الذين امتنعوا عن إقرارها وأرسلهم إلى روسيا ، فلم يسع النواب الباقين إلا الإذعان .

وقد نجم عن ذلك حركة ثورية انضوى تحت لوائها ألوف من البولنديين ولم يكن للقائمين بهذه الحركة يدان بمقاومة الجيوش الروسية الجرارة فتوالت هزائمهم وعمدوا إلى حرب العصابات وعجز الروسيون عن سحقهم وحدهم ، فاشتركت معهم الجيوش البروسية والجيوش النمساوية وبذلك أخمدت الحركة .

وتبع ذلك تقسيم بولندة بين الروسيا والنمسا وبروسيا ، وأرادت كاترين أن تظهر ذلك التقسيم الجائر فى الثوب الشرعى ، فأمرت صنيعتها الملك إستانسلاوس أن يجمع مجلس النواب البولندى ويأمر الأعضاء بإقرار ذلك التقسيم وهددته بالعزل إذا تلكأ أو أقام العقبات فى سبيل إنجاز هذه

الخطة ، فلم يجترئ على مخالفتها ، وشمر لإجابة طلبها ، فقد كان الرجل حريصاً على عرشه مستميتاً فى الاحتفاظ به .

ظهور البطل كوستسيوشكو

وانحدرت بولندة إلى درك البؤس والشقاء وسوء الحال . كان شبانها اليافعون قتلى فى ميادين الجهاد ، وكانت بلادها قد انتهبت وخربت ، ولم يكن لها جيش يصون كرامتها ويرد عنها الغوائل وقد أنشب فيها الروسيون والبروسيون والنمساويون أظفارهم . وكان لكل منهم جيش نظامى ضخم . ولكن كل ذلك لم يلن من عزم البولنديين ، واتخذت مقاومتهم أسلوبا سلبياً . وقد تم ذلك التقسيم المنحوس سنة ١٧٧٥ . وقد انتقص هذا التقسيم من أطراف بولندة ولكنه لم يفت فى عضدها . وحاول البولنديون إصلاح شأنهم فى الجزء الباقى لهم من بلادهم ، وجروا فى ذلك شوطاً بعيداً فنهضوا بالأدب والفن ، وأنشأوا المصانع ، وأصلحوا نظم التعليم ، وجعلوا الملوكية نظاماً وراثياً ، وأبطلوا طريقة الانتخاب لأنها كانت تمهد السبيل للفوضى والدسائس الأجنبية ، وتحسنت حالة المزارعين وارتقى مستوى معيشتهم وفى سنة ١٧٩١ أصبح النظام الجديد نظاما متبعاً وسنة مرعية . ولم ترق الروسيين هذه الحركة الإصلاحية الشاملة ، ففى سنة ١٧٩٢ غزت بولندة جموع روسيا ، وتبع ذلك مقاومة باهرة ودفاع مجيد من جانب البولنديين ، وكان يقود الجيش رجلان بولنديان ، أحدهما أمير صغير هو الأمير جوزيف بونياتوسكى ابن أخى الملك إستانسلاوس والآخر

كوستسيوشكو ابن أحد المزارعين وأعظم رجل عرفته بولندة فى أواخر القرن الثامن عشر ، ومن أشهر أبطالها الخالدين ورجالها البارزين .

وقد ولد تاديز كوستسيوشكى فى ناحية هادئة من نواحى لتوانيا ، وسجل له التاريخ أنه البطل الذى وقف حياته على إنقاذ بلاده ، ومدافعة أعدائها ، ونصرة قضيتها ، وقل أن تفتح كتابا فى تاريخ بولندة دون أن يطالعك محياه المستوحش الغريب الذى يذكرنا بقول أبى تمام

غربته العلى على كثرة الأهـ ـل فاضحى فى الأقربين جنيبا

وقد نشأ فى جو من البساطة والتقوى ، وعاش عيشة الريف الصحية الوديعة فى منزل من الخشب ذى طابق واحد سقفه من القش والبوص وأروقته ممتدة مستطيلة . ومات أبوه وهو طفل فجاهدت أمه جهاداً متصلا لترد عن المنزل عوادى الخراب وتنشئه نشأة صالحة . وكان يبدو أن تاديز سيعيش ويموت خامل الذكر ، خفى الشأن فى ظلال ريف ليتوانيا . ولكن القدر كان يدخر له شيئاً آخر . فقد رآه أحد النبلاء وكان يعرف والده فلمح فيه مخايل النجابة ، ولوائح الهمة والإقدام ، فأرسله إلى المدرسة الحربية التى أنشأها الملك إستانسلاوس وكان يشرف عليها بنفسه . وكانوا يربون الطلبة فى هذه المدرسة تربية قومية تجعل فيها خدمة بلادهم صوب نظرهم . وكان طلبة هذه المدرسة يوضعون تحت الاختبار مدة سنة قبل أن يسمح لهم بحمل السيف ، فإذا أثبتوا أنهم جديرون بتقلده أقيم لهم احتفال يقسمون فيه بشرفهم على ألا يشهروا السيف إلا فى سبيل الدفاع عن بلادهم .

وقد زادت هذه النشأة النيران المتأججة فى نفس تاديز ، وقد طالما وصفه أنداده فى الدراسة بأنه أشدهم عناداً ، وأكثرهم صبراً على العمل وبذل الجهد ، وأن له نظرة آمرة وشخصية ساحرة .

وبعد تخرجه من المدرسة الحربية رحل إلى فرنسا ، وانقطع خمس سنوات لدراسة الهندسة ، وعاد إلى بلاده ، وكان ذلك عقب التقسيم الأول ، فوجد باب العمل لإنقاذ بلاده مرتجا وكانت أمريكا فى ذلك الوقت تجاهد الإنجليز ، فأبحر هذا البولندى الصغير إلى العالم الجديد ليحارب فى سبيل الحرية .

وظل فى الميدان ست سنوات ، وساهم فى إقامة الحصون على نهر الهدسن وصحب القائد جرين الذى كان يحارب فى الجنوب فى نواحى كارولينا ، واشترك فى إنشاء الزوارق التى كان يعبر عليها الجنود فوق ثوائر الأمواج ، وأنشأ فى وست بوينت لنفسه حديقة صغيرة كان يمضى فيها سويعات فراغه مفكراً فى بولندة ومصيرها ولا تزال آثار تلك الحديقة موجودة ومسماة باسم « حديقة كوستسيوشكو » .

ولما وضعت الحرب الأمريكية أوزارها ، وتحققت آمال الأمريكيين عرفوا له فضله وحسن بلائه ، فسربلوه الشرف ، وخصوه بالرعاية والتقدير ولكن لم يكن هناك ما يستدعى بعده عن بلاده ، فعاد إليها وعاش فى ضيعته الصغيرة ، وأنشأ حديقة صغيرة كانت موضع عنايته وغرس فيها الأشجار بيـده ، وكان يخالط المزارعين ويواسيهم ويجبر بكرمه وصفاء

نفسه قلوبهم الكسيرة ، ويزور جيرانه ، ويخص صغارهم بسابغ عنايته ، وفائض بشاشته .

كوستسيوشكو يقود أمته :

وتدفقت الحوادث فى مجراها تدفقاً سريعاً ، ولم تمكن كوستسيوشكو من أن يظل ناعماً فى هدوء الريف . ففى سنة ١٧٩٢ هاجمت الجيوش الروسية بولندة فاستصرخته أمته ليقود الجيش مع الأمير چوزيف بونياتوسكى ، وبعد انقضاء شهرين على هذه الحرب التى أظهر فيها البولنديون الكثير من ضروب الشجاعة ، وتجلت فيها بطولة كوستسيوشكو أفسد الملك على الأمة البولنـــدية أمرها باستسلامه للروسيين ، والتقى كوستسيوشكو هذا الجندى الصلب المتين البناء الشديد الأسر بالملك إستانسلاوس الرقيق الحاشية ، السرى الهيئة ، فدافع عن بلاده دفاعا مجيداً وحاول عبثاً أن يرد الملك إلى صوابه ، ويبصره عواقب الإمعان فى الاستسلام ، ولكنه كان يضرب فى حديد بارد ، وحاول الملك أن يغريه ويجتذبه إلى صفة ، ولم يكن أمامه إذا أراد أن يسلم شرفه ويصون سمعته إلا أن يعرض عن الملك ويتنازل عن رتبته وثروته وأن يوطن النفس على احتمال آلام النفي والفقر والحرمان ، فأغمد سيفه واجتاز حدود بلاده المحبوبة ودعا الله أن يمكنه من العودة إلى حمل السيف دفاعاً عن وطنه . وسرعان ماحانت الفرصة ، فقد اتفق بعد انسحاب كوستسيوشكو مع طائفة من أحرار البولنديين أن روسيا وبروسيا قامتا بتقسيم بولندة بينهما مرة

ثانية . فأثار ذلك ثائرة الشعب البولندى ، وجعل البولنديين يصممون على الاحتفاظ بالجزء الباقى لهم ، ويعملون على استرداد الأجزاء التى اغتصبها أعداؤهم بحد السيف . وعقدت اجتماعات فى جنح الليل ، وعلقت منشورات فى الشوارع تدعو الناس إلى الثورة ، ولم تستطع الشرطة معرفة كاتبيها ، واتجهت بولندة جميعها إلى رجل واحد تطمئن إليه وتثق به وهو كوستيسوشكو ، فدعوه ليتولى القيادة ، فقبل الدعوة وعاد إلى كراكاو .

الموت أو النصر :

واجتمع تحت لوائه الكثيرون من الرجال والنساء ، وقدموا أنفس ما يملكون من خيل ومال وجواهر كريمة ، وكان العمال والمزارعون وأصحاب المهن يجودون عن طيبة خاطر بما ادخروه من مال قليل ، وقد استطاع هذا الجيش الذى كان قوامه المزارعين أن يبدى براعة فائقة وأن يقوم بحركات حربية بديعة ، وكان كوستسيوشكو يهيب بهم فى حومة الوغى فيلبون دعوته ويستجيبون لندائه ويحصدون الروسيين حصداً ، وكان شعار الجميع « الموت أو النصر »

ولم يكن إقبال الناس على التطوع فى هذا الجيش بدافع الوطنية وحدها ، وإنما كان لشخصية كوستسيوشكو الجذابة المحبوبة أثر كبير فى ذلك ، وكان يواصل عمله ليلا ونهاراً ويضن على نفسه بالراحة القليلة ويظل ينظم الحركات ويضع الخطط ويكتب الكلمات المثيرة يستنهض بها العزائم ويستثير الحمية ، ويرسل الرسائل إلى مختلف الدول ليسترعى نظرها

ويكتسب عطفها ، وسرعان ما اشتبك جيشه الصغير القليل المعدات فى معارك طاحنة مع الجيش الروسى الجرار والجيش البروسى المنظم الكامل الأهبة ، وكثرت الخسائر وتوالت الهزائم ولكن كوستسيوشكو كان رجلا ركيناً لا يزدهيه النصر ولا تطير بلبه الهزيمة . وكان فى خلال تلك الحركة هو حاكم بولندة المطلق فلم يغير هذا المركز الرفيع من أخلاقه ، وظل على بساطته المعهودة وتواضعه المحبوب ، وكان يعيش فى إحدى خيم المعسكر ويأكل الخبز الأسود مثل سائر جنوده ويحتسى الجعة ، وقد سأله أمير بولندى يملك مالا وضياعاً « لم لا تشرب النبيذ المعتق » ؟ فأجابه كوستسيوشكو « إنك تستطيع ذلك لأنك غنى بعيد النفوذ ولكننى خادم بولندة المضطهدة ولا يجمل بى أن أنفق نقودها على مطالبى الخاصة » وكان رجاله يعتبرونه أخاً لهم ، وكان يلبس ملابسهم ويؤمهم فى الصلاة ، واستمر جيشه يجاهد من شهر مارس إلى شهر يوليو ويلقى الانتصارات والهزائم .

وكان سكان وارسو قد ثاروا بالروسيين حينما انتهت إلى أسماعهم أنباء الثورة التى تزعمها كوستسيوشكو وطردوا الجيش الروسى من مدينتهم ، ولكن فى أوائل يوليو كان الجيش الروسى والجيش البروسى يتقدمان نحو وارسو ، فأسرع كوستسيوشكو لإنقاذها ، وبدأت حينذاك أعظم مخاطرة قام بها كوستسيوشكو ، وقد أثار حضوره الحماسة فى نفوس المدافعين عن وارسو ، وكان الجميع يحتذون مثاله ويسيرون سيرته ويتلقون وحى تفكيره ،

وبعد مضى ثمانية أسابيع طويلة حافلة نظر البولنديون من أسوار المدينة فرأوا العدو ينسحب ويقوض خيامه ، ورفع الحصار ، وأنقذت المدينة .

وعم السرور والابتهاج ، ولكن لم يطل أمد ذلك فقد كانت القيصرة كاترين الثانية تستعد لتقسيم بولندة الثالث ، وأرسلت إلى وارسو جيشاً ضخما يقوده سواروف أعظم قوادها ، وعاد الجيش البروسى إلى محاصرة المدينة ، وخشى النمساويون أن يضيع نصيبهم من الغنيمة فبادروا إلى إرسال جيش ليشترك فى الحصار واقتحام المدينة ، وصمم كوستسيوشكو على أن يخرج إلى أحد المعسكرات خارج المدينة ليهزم أحد الجيوش الروسية قبل قدوم سواروف ، وتحرك الجيش البولندى لمنازلة الروسيين ودارت أرجاء معركة شديدة بدأت من الصباح واستمرت طوال النهار ، وحارب البولنديون حربا شديدة بشجاعتهم المعهودة بل فاقوا أنفسهم وأتوا بالخوارق فى ذلك اليوم المأثور ، ولكن عدد الروسيين كان يفوقهم إلى حد كبير ، وكانت نيران المدافع الروسية تتساقط عليهم كالأمطار ، ونفدت ذخيرتهم ونال منهم الكلال ، فاخترق الروسيون صفوفهم وطوقوا الجيش البولندى ، وكثرت جراح كوستسيوشكو حتى سقط فى الميدان فاقد الوعى وأسره ثلاثة من الضباط الروسيين ، وعاد الجيش الروسى إلى بطرسبرج ومعه كوستسيوشكو وغيره من الأسرى البولنديين . وظل كوستسيوشكو فى السجن عامين ، وفى سنة ١٧٩٦ ماتت القيصرة كاترين ، وبعد موتها بأيام كان كوستسيوشكو مستلقياً فى سريره لأنه كان لا يقوى على الوقوف

ولا على المشى فأدهشه أن يرى نفراً من الناس يدخلون حجرته ، وكان بينهم القيصر بولس الأول الذى كانت تنتابه من الحين إلى الحين المشاعر النبيلة وابنه الإسكندر الذى ارتقى عرش روسيا بعده وخادمه ، وعانق الإسكندر كوستسيوشكو وقال له القيصر بولس « لقد جئت لأطلق سراحك » وكانت مفاجأة شديدة الوقع ، فلم يدر كوستسيوشكو كيف يجيب ، ثم جلس القيصر وتحدث إلى كوستسيوشكو حديثاً طويلا ، ولم يكن هناك ما ينسى كوستسيوشكو أمر بولندة فدافع عنها دفاعاً حاراً فى حضرة عاهل الروس .

وبعد إطلاق سراحه زار السويد و إنجلترا وأمريكا وفرنسا وكان أينما حل يقابل بالترحاب و يلقى الرعاية من أعظم الرجال وأجمل النساء وتقدم له الهدايا ، ولم يكن الرجل يعنى بشىء من هذا فقد كانت حالة بلاده لا تبرح مخيلته ، وقضى أيامه الأخيرة فى سويسرة . وكان جميع الفقراء فى الأقاليم المجاورة لمكان إقامته أصدقاء له فقد كان يحمل إليهم الصدقات من دخله القليل . وكان يعيش فى عزلة تامة ، و بعد موته حملت بقاياه إلى مدينة كراكاو وأقام له مواطنوه نصباً تذكاريا فى ظاهر المدينة ولا تزال ذكراه ناضرة فى نفوس مواطنيه إلى اليوم وستبقى كذلك ما بقى اسم بولندة .